١

نابغة مملكة سبأ



دار الكتب العلمية

نَابِغَةُ مَمْلَكَةِ سَبَأ

في قديم الزّمان وسالف العصر والأوان، كانت بـلادُ اليمن عامـرةً ومزدهرةً، وإبّان حكم الملك «عَمْرو» والملكة الشّهيرة «بلقيس»، صارت مدينة« مَأْرِب» منارة العالم القديم ومَفْخَرة العرب.

وكانت صناعةُ الحُلِيّ والنَّقْش البديع أشهرَ مـا جعلَ صيتَ مـدينة مأرِبَ ينتشر في العالم إلى جانب السدّ العظيم «سدّ العَريم». وكان الملك «عَمْرو» يَفخر أمام أمراء وملوك العالم بازدهار مملكته، أمّا الملكة «بلقيس» فقد كانت تسيرُ الخُيَلاءَ وتُصَعِّرُ خدَّيْها تيهاً عندما تجتمع إلى وفود الملوك والأُمراء في حاضـرتها مـأرِب، وتُشنِّفُ آذانَهم تحدّيـاً بأَنّ مـأربَ أعظمُ عواصم الدّنيا، وأنّ الشّعب اليمنيّ أكثر شعوب الأرض سعادةً ورفاهاً! . . .

وفي إحدى المَغاورِ الكثيرة التي تحيط بمأرِبَ كان يعيش فنّانٌ عظيمٌ لا يُقارَن بأحد، وإنتاجه الفنّيُّ لا يُضاهَىٰ أبداً. بلغ هذا الفنّان الثّمانينَ من العمر وهو يتابعُ عمله في صومعته وحيداً بِجَلَدٍ وصمتٍ، وتخرُجُ عشرات التّماثيل هي آيةٌ في الجمال والرّوعة من تحت إزميله.

ذات يوم، أَلقىٰ الفنّانُ الشّيخُ المطرقةَ والإزميلَ وحدَّثَ ذاتَ نفسه وقال:

- ما نَفْعُ أن أكونَ عظيماً، ولا أُخَلِّفُ من بعدي أحداً يحلُّ محلّي ويتابعُ عملي ويُخلِّد الفنَّ في اليمن السّعيد؟...

وفي صباحِ اليوم التّالي خرج الفنّان من صومعته وقصد زيارةَ الملك «عَمْرو». وأُدخِلَ على الملك مِنْ فوره، فنهض «عَمْرو» تكريماً لشيخ الفنّانين، وبالغ في تكريمه احتراماً لمنزلته الفنيّة العالية وما أكْسَبَتْه لليمن من شهرةٍ واسعة.

بعد أن قدَّمَ الفنّانُ الشّيخُ فروضَ الاحترام للملك قال:

- أيّها الملكُ العظيم، لقد بلغْتُ من العُمُر عِتِيّاً، وباتَتْ أيّامي معدودةً، وإنّه لَيَصْعُبُ عليَّ أن أُغمضَ عينيَّ هانئاً ما لم أرَ خَلَفاً لي أُعلِّمُهُ صنعتي ويكونُ أرفعَ منّي منزلةً وفنُّه أكثرَ دقّةً وإتقاناً.

ردَّ الملكُ وأجاب:

- وبماذا يأْمُرنا فنّانُنا العظيم؟!..

- قال شيخُ الفنّانين:

- يا مَلِكَنا وفخرَ بلادنا؛ أَنْ تختارَ جماعةً من أذكياء فِتيان اليمن فأَتَعَهَّدُهم، وأصنعُ من بينهم واحداً يَخْلِفني في مهنتي، ويحفظ للبلاد مَحطَّ فخرها في هذا الفنّ المحترم من شعوب الأرض وملوكها.

سُرَّ الملكُ «عَمْرو» لأَرْيَحيّة شيخ الفنّانين وأثنىٰ على طلبه النّبيل وقال:

- لك ما تشاء يا فخرَ اليمن، فبمثلك تزدهر مأربُ وتكسب الاحترام.

وفي اليوم التّالي حُمِلَ الشّيخُ على عربَةٍ ملكيّةٍ إلى صومعته ومعه



الفنّان الشيخ يعرض فكرته على الملك « عمرو » .

جماعةٌ من أَعيان اليمن يُرافقون فتيانَهم يَأْمَلُ كلُّ واحدٍ منهم بتَبَوُّءِ ٱبنه مكانَةَ الفنّان الكبير.

وابتدَأَ الفنّانُ الشّيخُ بتدريس طلاّبه أسرارَ فنّه بإخلاصٍ وصبرٍ مُتناهِيَيْن.

وحدَث أن كان لعجوز تسكن كوخاً لا يبعد كثيراً من مغارة الشيخ الفنّان، حفيدٌ صغير اسمه «هدهاد»، وكانت العجوز تطمح في أن يكون «هدهاد» إنساناً عظيماً يحترمه الناس.

جلستِ العجوز، ذات مساءٍ، إلى «هدهاد» وقالت له:

- يا بُنَيّ، إذا أردتَ أن تكونَ شيئاً في هذه الدّنيا فٱسْعَ لأنْ تحلَّ محلَّ الفنّان الشّيخ الذي يقيم في كهفٍ لا يبعد كثيراً عن مسكننا.

اهتمَّ «هدهاد» بنصيحة جدّته، وراح يراقبُ الفتيانَ الأَثرياءَ منذ دخولهم صومعةَ شيخ الفنّانين وحتى مغادرتهم لها، وينظر إليهم بكثير من الحسرة وهو يلهُون ويعبثون بينما يعمل الشّيخ جهدَه بتعليمهم صنعته. وذات يوم حدَّث «هدهاد» نفسَه وقال:

- لماذا لا أَنْدَسُّ أنا أيضاً بين أَبناء الأعيان وداخل الصّومعة وأَجتهِدُ في تعلُّم مهنة الشّيخ وأُتقنها أحسنَ إتقان؟...

وفي اليوم التّالي ٱندسَّ «هدهاد» بين الفتيان، وغافَلَ الشّيخَ وٱختبأَ في إحدىٰ زوايا الصّومعة، حيث يتمكّن من مراقبة الشّيخ وطلاّبه دون أن يكتشفه أحدٌ منهم، وراح يُراقبُ ويُنصِتُ إلى الفنّان الكبير أثناء أدائه لواجبه.

ولم يَطُلِ الزّمنُ على الشّيخ حتّى اقتنع بأنْ لا يمكن لأحدٍ من هؤلاء الفتية أن يكونَ الفنّانَ المنشود. فنَفَدَ صبرُه وهو يرى الفتيةَ وقد اتّخذوا من

صومعته ملعباً لِلَهوهم، بل وحتّى السُّخرية من شيخوخته. فتناولَ العصا وطردهم جميعاً إلى خارج الصّومعة، وعاد حزيناً كئيباً يُتمتِمُ بصوتٍ عالٍ سمعه «هدهاد» من مخبئه وهو يقول:

- كان على صوابٍ مَنْ قال: «يَملِكُ زِمامَ المهنة مَنْ كان لها عاشقاً، وإليها محتاجاً».

وتَوالتِ الأيّامُ والشّيخُ يعملُ نهاراً ويستريحُ ليلاً، وهدهاد يراقبه بحذرٍ واهتمام شديدَيْن طوالَ الوقت، وينتظر بفارغ الصّبر حلولَ الظّلام، فينزل إلى المشغل، بعد أن يغادره الشّيخ ليأوي إلى فراشه، فيُضيء شمعةً ويستغرق في العمل مُقلّداً بدقّةٍ ومهارةٍ ما كان قد رآه. وكان يتحيَّنُ الفُرصَ عندما يغادر الشّيخ صومعته لِحاجاتٍ تعترضُهُ، ليدخل إلى مخدعه وينكبّ على دراسة فكره وملاحظاته الفنيّة ويعبث في أوراقه ودفاتره بحثاً عن المزيد من العلم والتّجربة ليُمسك بزمام الصّنعة ويتفوّق فيها.

وهكذا حقّق هدهادُ أمنيته وبرع في ميدان النّحت، وكانت القطعة الأخيرة التي أنجزها لا تقلّ دقّةً وجمالاً عن أفضل ما أنجز الشّيخ في حياته.

وفي أحد الأيّام قَدِمتِ الملكةُ الفاتنة «بلقيس» بصحبة الملك «عَمْرو» إلى صومعة الفنّان الشّيخ، وبعد أن أَنعمتْ عليه بالتّحيّة قالت:

- يا شيخَ فنّاني اليمن، قَصَدْتُكَ لأُوفيكَ حقّكَ في الإكرام والتّبجيل وأُمتِّعَ ناظِرَيَّ بجميل إنجازاتك قبل أن أطلب منك أن تساعدني على تحقيق رغبتي

أجاب الفنّانُ الشّيخُ بصوتٍ اعتراه التّعب وقال:

- شرفٌ عظيمٌ لي أن تتكرَّمَ ملكتي العظيمة بزيارتي، وشرفٌ أكبرُ أنْ

أقدِرَ على تحقيق رغبتكِ الغالية.

قالت الملكة:

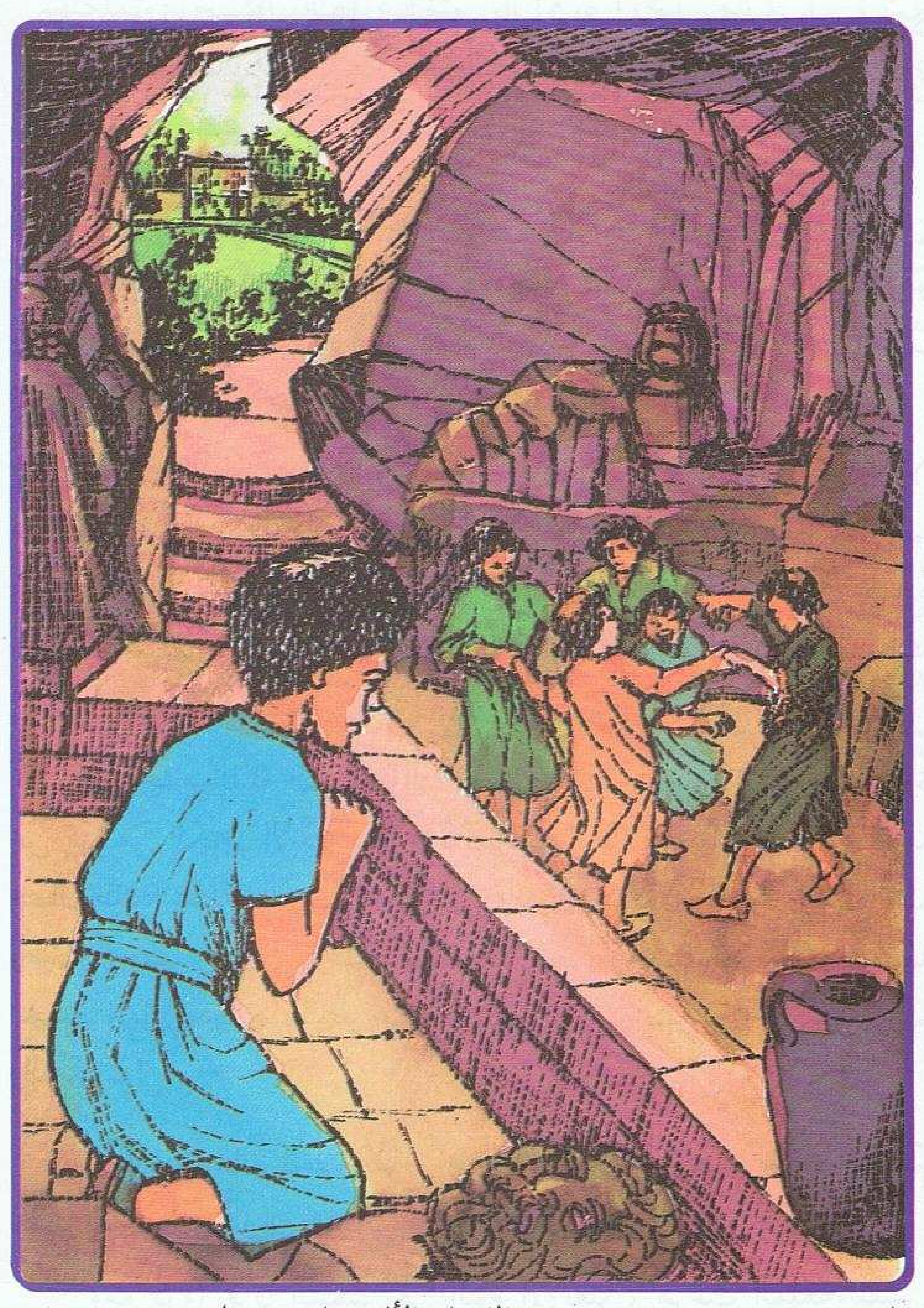
- كنتُ في زيارةٍ لإحدى ممالك الشّمال مدعوَّةً إلى ضيافة أميرها، وحدث ذات مساءٍ أن تَباهى الأمير، وهو يعرض أمامي تحفةً فنيّةً من صُنع مَهَرَةِ فنّاني أرض الرّافِدَيْن، فتذكّرْتُكَ في الحال ومَرَّتْ في مُخيِّلتي بدائعُ صَنائعك، فقلتُ للأمير: «أيّها الأمير الجليل، إنّ التُّحفَ التي فاخَرْتَ بروعتها وأنتَ تعرضها أمامي ليست شيئاً يستحقُّ لتفات إليه إذا قُورِنَتْ بأعمال فنّاننا العظيم في سَبأ». وذكرتُ آسمَك، ثمّ اندفعتُ بحماسٍ شديد ووجدْتُني أتحدّاه وأقول بأنك تستطيع أن تصنع تحفةً فنيّةً مُعجزةً مثل أعمال السَّحَرَة وليس بمقدور أحدٍ فكُّ أسرارها وطلاسمها الفنيّة. وقَبِلَ الأمير هذا التحدّي منّي وصِرْتُ مُلزَمةً بالوَفاء.

أطرق الشّيخُ برأسه مهموماً، وسقطت من عينيه دمعتان ولم يَنْبُسْ بِبِنْتِ شَفَة. وتابعت الملكة «بلقيس» كلامها قائلة:

- وقد حَدَّدْتُ مُهلةَ أربعين يوماً، غير أيّام السّفر، وعداً لإحضار التّحفة المعجزة إلى مجلسه، ولسوف يحضر أُمراءُ وملوك الأُمم البعيدة ليحكموا فيما بيننا ويقرِّروا لمن الغَلَبَة.

غادرتِ الملكةُ «بلقيس» والملكُ «عَمْرو» إلى مأرِبَ تاركين الفنّانَ الشّيخَ لحزنه وهمّه.

كان الفتى «هدهاد» يَسْتَرِقُ السّمعَ إلى حديث الملكة ويُنقِّل ناظِرَيْه بين وجه الملكة المُشرق ووجه الملك المَهيب، وقد تملّكه شعورٌ عارمٌ عقب ذلك في أن يُلبّي بنفسه رغبةَ الملكة الفاتنة، وهي فرصته النّادرة كي



الفتى « هدهاد » يراقب بحسرة الفتيان الأثرياء وهم يلهون ويعبثون .

تذيع شهرتُه وتمتدّ إلى الآفاق. فحدَّث ذاتَ نفسِهِ بحرارةٍ وقال:

- هـذا هو اليـوم الذي أحقق فيـه حُلمَ جدّتي وأكـون مشهوراً ذا شأنٍ لا في سَبَأ فحسب بل بين الأمم البعيدة أيضاً، ويكفيني فخراً أن تُكرِّمني ملكتي الفاتنة أمام أهل اليمن عموماً.

أَلزَمَ المرضُ الفنَّانَ الشّيخَ الفراشَ من شدّة تأثُّره وحزنه لعجزه عن أداء المهمّة، وانفسح المجالُ أمام «هدهاد» فصار يُلحِقُ نهارَه بليله وهو يفكّر ويعمل بجدٍّ واجتهاد، وقد صمَّم أن يُنجز عملاً يكون فعلاً مثل أعمال الجانِّ والسَّحَرَة ويعجز أيُّ إنسانٍ عن صنع مثيلٍ له.

مضت الأيّامُ متسارعةً و«هدهـاد» مُستغرِقٌ في عمله بـلا كَلَلٍ ولا ملَل، غير مهتمٍّ بطعامه وشرابه إلّا عندما يشتدُّ به الجوع أو العطش، ولم يكن يَخْلُدُ إلى الرّاحة إلّا بعد أنِ ينال منه التّعبُ وتخور قواه، فهَزُلَ جسدُهُ الصّغيـر من شدّة الإعيـاء. وبالجهـد الجهيد تمكّن من وضـع اللّمسات الأخيرة على تحفته الفنيّة.

في ختام الليلة التّاسعة والثّلاثين فَرَغَ «هدهاد» من عمله وهو عبارةٌ عن كُرَةٍ من الحجر الأخضر أَفرَغَ قلبَها بمهارةٍ فائقة، ونقشَ على ظاهرها جمالَ طبيعة مملكة مأرب، من جبال ووديان وسهول وأنهار، وحيـوانات وطيـور. وممّا زاد من روعـة التّحفة، لا خِفّـة وزنهـا رغم حجم كُتلتهـا فحسب، بل إعجازها للنّاظر عن سِرِّ فتحها، وهي صندوق حُلِيِّ الأميرات والملكات!

قَبَّلَ «هدهاد» تحفته بفرحٍ عارمٍ ووضعها في صدر الصّومعة ثمّ نظّف المِشغل ورتّبه وصعد إلى مخبئه واستسلم للرّقاد.

ومع ذُرور قرن الشّمس في اليوم الأربعين، هرعت الملكةُ بلقيس

برفقة الملك عمرو وحاشيته من أعيان سبأ واليمن إلى الصّومعة، ولمّا لم يجدوا في استقبالهم أحداً عبروا إلى مخدع الفنّان الشّيخ. وتملّكتهم الخيبة عندما رأوا الفنّانَ الشيخَ طريحَ الفراش مصفرَّ اللّون شاحبَ السّحنة هزيلَ الجسد.. فأيقنوا أنّه عجز عن تحقيق رغبة الملكة بلقيس.

تحاملَ الفنّانُ الشّيخُ على ضعفه ونهض بصعوبة من فراشه عندما عَمَّ الضّجيجُ حوله، ولكنّه أطرقَ حزيناً كاسِفَ البال لدى رؤية الملكة والملك والحاشية. وببطءٍ شديدٍ راح يتكلّم ويقول:

- لقد سَقُمَ حالي وخارَتْ قِوايَ ونالتْ منّي الشّيخوخةُ كما ترون!...

حزنت الملكة بلقيس حزناً شديداً، وظنّت أنّ أملها قد خاب، فخرجت مُسرعةً إلى المِشغل لتكتم ببالغ الصّعوبة أساها. وفجأةً وقع نظرُها على كُرةٍ لم ترَ مثيلاً لها في حياتها، فتناولتها بين كفَّيْها، فكانت دهشتُها أكبر عندما وجدَتْها خفيفة الوزن، وهتفت بأعلى صوتها وقالت:

- يا إلٰهي! لقد صنعَها... لقد صنعَها!...

واندفعت إلى حجرة نوم الشّيخ، ولمّا يزل الملكُ وصحبُهُ في دهشتهم، وهي تصرخ وتقول:

- يا إلٰهي! إنّها إحدى عجائب الدّنيا!... ما أخفَّ وزنها!... إنّها آية...

ثمّ التفتتْ إلى الملك عمرو وقالت:

- أنظر أيّها الملك! لم يبقَ شيءٌ في المملكة إلاّ ونُقِشَ على الكرة...



انتفض الشيخ من فراشه وهو يردّد ويقول:

- لا يمكن أن يحدث هذا!.. ليس هذا من المعقول!

وساد صمتٌ رهيب، وراح الجميع يتأمّلون الكرة المسحورة ويدقّقون في آيات جمال صُنعها، ولم ينتبه أحد إلى الفنّان الشيخ وهو يقول:

- أنا لم أصنع هذا... لا بدّ أنّ الجانّ تعاونت على صنعها!.

وعندما استفاق الحضور من دهشتهم تحلّقوا من حول الفنّان الشيخ يُثنون عليه ويبجِّلونه.

وقالت الملكة بصوت جهوريّ:



- أنا لا يمكن أن أصدّق بأنّ قلبَها فارغ، فهل لك أن تدلّنا على سرّ فتحها؟؟

صرخ الشّيخ بأعلىٰ صوته وقال:

- أنا لم أصنع هذه الكرة التّحفة، وأُقسم بأنّ يداً ماهرةً غير يدي صنعت هذه الكرة في غفلة منّي!...

استيقظ «هدهاد» من سُباته على الضّوضاء التي عَلتْ أجواء الصّومعة، فاندفع نحو حُجرة الفنّان الشّيخ ووقف أمام الملكة والملك ورهط الأعيان مشدوهاً وقال:

- أنا صنعتُ هذه الكرة بعد أن رأيتُ عجزَ الفنّان الشّيخ بفعل السّنين، وعزَّ عليَّ أن يخيب أمل ملكتي الجليلة، وأنْ يُقال بأنّ الفنّ قد انتهىٰ في اليمن!...

وتقدّم الفتىٰ «هدهاد» إلى الكرة وحرّكها بطريقة خاصّة فانقسمت إلى فلقتين. وممّا زاد في دهشة الملكة والملك والأعيان أنَّ جوْفَ الكُرة لونُه أحمر قانٍ بينما لونها الخارجيّ أخضر.

صاح الشّيخُ وقد غمره الفرح قائلاً:

- الآن تعال أيّها الموت! إنّك لم تعُد تُخيفُني... لقد خلدَ الفنّ من بعدي!...

فرح الجميعُ لإنجاز هدهاد، وتقدّمت الملكةُ من الفتى النّابغة وقالت له:

- أنت بعد اليوم سوف تسكن في جناحٍ من قصري، وستُفتَح أمامَك كلُّ خزائن سبأ، ومكانتُك ستكون عزيزةً لديَّ ولدى الملك وعموم أهل اليمن يا فَخْرَ سبأ!...

أجاب هدهاد:

- لي جدّة تعيش وحيدةً في كوخها، وأُمنيتي أن تشاطرني حياتي، فلها يعود الفضلُ في ما بلغتُه من مهارة في النّحت، ولكي ترى بأمّ عينها وتفرح لما حقّقتُه من مكانة بين بني قومي.

وحملت الملكة بلقيس تحفتَها النّـادرة إلى أمير مملكـة الشّمال، وكانت التّحفة مَثَارَ دهشة وإعجاب الملوك والأمراء، واعترف لها الجميع بصدق تحدِّيهـا وجلال رأيهـا. وأمّا هـدهاد فقـد عاش في كَنَف القصـر الملكيّ، وصار الفنّان الأوّل لمملكة سبأ، وأنجز الكثير من الأعمال الفنيّة الرائعة، وكان جزءاً مشرقاً من حضارة اليمن في تلك الأيّام الغابرة.

* * *



الفتى « هـدهـاد » يعمـل بـاجتهـاد لإنجـاز تحفتـه الفنيـة الـرائعـة .



الملكة « بلقيس » في حجرة الفنان الشيخ وهي تحمل الكرة العجيبة بين يديها .

١ نابغة مملكة سبأ

٢ كنوز كهف الحكمة

٣ أسرار غمام ديلمون

٤ عندليب الغيب

٥ ملك اليمن السعيد

٦ أمير العمالقة

٧ السياف الدمشقي

٨ ملك بابل المهيب

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣
هاتف وفاكس: ٠٠/١٢١٢٤٧٨١٣٧٣ 00/1212 4781373